العمارة والحداثة

الدكتور المهندس محمد حسّان السراج

اهتمّت الدولة الإسلاميّة في عهد الخلافة الراشدة والأمويّة والعباسيّة بالعلوم والمدنيّة كما اهتمت بالنواحي الدينيّة فكانت الحضارة الإسلاميّة حضارة تمزج بين العقل والروح، فامتازت عن كثير من الحضارات السابقة. فالإسلام دينٌ عالمي يحض على طلب العلم وعمارة الأرض لتنهض أممه وشعوبه، وتنوّعت مجالات الفنون والعلوم والعمارة طالما لا تخرج عن نطاق القواعد الإسلاميّة؛ لأنّ الحريّة الفكريّة كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على بلاد الغرب وطرقت أبوابه، وهذه البوابة تبرز إسهامات المسلمين في مجالات الحياة الإنسانيّة والاجتماعية والبيئيّة، خلال تاريخهم الطويل، وعصورهم المتلاحقة.

لا شك أنّ الأفكار الاقتصاديّة قديمة قدم الإنسان نفسه، ومنذ صدور الأمر الإلهي إلى سيدنا آدم بالهبوط من الجنة إلى الأرض وذلك بهدف إعمار الكون والسعي في طلب الرزق، وهذا يعني ببساطة: "العمل والإنتاج"، وهما – كما أشرنا – أساس الاقتصاد؛ قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ الأعراف: ٢٤.

واعتبارا من هذا التاريخ والإنسان في صراع مع الطبيعة يحاول إخضاعها لسيطرته، وتسخيرها لخدمته، وذلك بأن يستخرج منها كل ما يكفي احتياجاته ويشبع رغباته، وقد ترتب على ذلك أن واجهته العديد من المشكلات الاقتصاديّة، وفي سعيه المستمر للتغلب عليها وتطوير قواه الإنتاجيّة والعمليّة الاقتصاديّة بأكملها، نشأت العديد من الأفكار الاقتصاديّة والتي تُعد نتاج الممارسة العمليّة.

إن القرآن الكريم قدْ أرسى القواعد الكليّة لتنظيم الاقتصاد، وجاء بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمي بحاجته منه، وتشتمل على الأسس التي تكفل للجنس البشري أوضاعاً اقتصاديّة تحقق له مستويات عليا من الرفاهيّة قبل أنْ يقوم علم الاقتصاد ويصل إلى ما وصل إليه من التقدم، ومما جاء في القرآن الكريم – مبدأ العمل – فالعمل هو السبيل الطبيعي لكسب المعاش، وهو الدعامة التي يقوم عليها المجتمع الإنساني؟ فهذا رجل من أفراد المجتمع يزرع، وذاك يصنع، وآخر يتجر، وغيره يعالج المرضى، أو يسهر على حفظ الأمن، أو يدافع عن الوطن إلى غير ذلك من الأعمال التي يقتضيها نظام الجماعة البشريّة، ومن أجل ذلك حثَّ الإسلام على العمل وحضَّ على الكسب من طرقه المشروعة؛ فقال تعالى: ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ الملك: ١٥، وقال سبحانه: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا

الله كثيرا لعلكم تفلحون) الجمعة: ١٠، وقال عز وجل: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) التوبة: ١٠٥ .

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" (أخرجه البخاري)، وقال أيضا: "والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه" (أخرجه البخاري) .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: "لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهمَّ ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة"، إلى كثير من الآيات والأحاديث والآثار التي تدل على عناية الإسلام بالعمل، وتبين مدى أهميته للفرد والجماعة.

لذلك يعرِّف الاقتصاديون الموارد الطبيعيّة بأنها تشمل الأرض والمواد الخام، مثل: المعادن والمياه وضوء الشمس.. ويضم عنصر رأس المال المصانع والأدوات والمؤن والمعدات، أمّا اليد العاملة فتعني كل الناس الذين يعملون أو يبحثون عن عمل، كما تعني مستوياتهم التعليميّة وخبراتهم العمليّة، وتُشير التقنيّة إلى البحث العلمي والبحث في مجال الأعمال والمخترعات.

ولتحقيق النمو، فإن اقتصاد أمة معيّنة لابد أن يزيد من مواردها الإنتاجيّة، فعلى سبيل المثال ينبغي على الأمة أنْ تستعمل جزءاً من مواردها لبناء المصانع والمعدات الثقيلة وغيرها من المواد الصناعيّة، ومن ثم يمكن استعمال هذه المواد الصناعيّة لإنتاج المزيد من السلع الأخرى في المستقبل، كذلك ينبغي على البلاد أن تبحث عن المزيد من الموارد الطبيعيّة وأن تنميها، وأنْ تبتكر تقنيّات جديدة، وأن تُدرب العلماء والعمال ومديري الأعمال الذين سيوجهون الإنتاج المستقبلي، وتُسمى المعرفة التي تكتسبها هذه الفئات "رأس المال البشري" .

ثم انشغل بعض فئات المجتمع بالفكر بصفة عامّة في مختلف أنواعه، وفي إطار ذلك كانت لهم بعض الأفكار الاقتصاديّة المحدودة بسبب محدوديّة العمليّة الاقتصاديّة؛ فالحاجات محدودة جدا وتنحصر في المأكل والمأوى والملبس، وأدوات الإنتاج بسيطة جد، وتعتمد على القوّة الجسديّة للإنسان بجانب بعض الأدوات المحدودة جدا.

لهذا أعطي للعمارة مسمى بأنها الفن العلمي لتشييد المباني، لتلبية احتياجات الإنسان الجسديّة والنفسيّة، والروحيّة، والتي تتوفّر فيها شروط الاستخدام، المتانة والجمال والاقتصاد باستخدام أفضل الوسائل المعاصرة وتعتمد على المنطق السليم والعلم الصحيح والفن الرفيع.

فالعمارة والاقتصاد – يُعرف بأن المشاريع العمرانيّة الكبرى والعملاقة تُعد مؤشراً حيوياً للنمو الاقتصادي، والتطور الحضاري على حدٍّ سواء، فالنهضة الاقتصاديّة ومعدلات الإعمار تتناسبان طردياً، إذ أن الاستثمار في القطاع العمراني يُعد من أكبر الاستثمارات ضخاً للأموال.

فالتطورات بدأت الأرض تنبت أيقونات معماريّة تختلف عمّا سبقها، خصوصاً بعدما تجاوزنا التسعينيّات الميلاديّة، فما كان تنفيذه صعباً لأسباب ماديّة أو تكنولوجيّة أصبح اليوم ممكناً، وذلك بفضل التطور التكنولوجي، إذ أصبح بالإمكان إقامة بناء بطول ميل باتجاه السماء، كذلك أُستحدثت مواد بناء جديدة، تساهم في إقامة هياكل وأغلفة منحنية وغرائبيّة من خامات تُعد جديدة نسبياً في عالم البناء، لقدْ انتقلت الهندسة المعماريّة من حيز العلمي التطبيقي إلى فضاء الفني الجمالي، وأصبحت الهندسة المعماريّة أسلوب حياة، وليست مجرد تشييد مبانٍ، ومع القرن الواحد والعشرين وثورة مشاريع الإعمار وردم البحر لإنشاء الجزر بدأت تظهر هذه المباني التي تخفف من تقليديته، ففراغها يتبع غلافها وغلافها يتبع الاقتصاد.

بالطبع، يحق لنا أن نحلم بالسكن في هذه التركيبات الجديدة، التي تتواكب مع التكنولوجيا الحديثة وتحقق الجمال والراحة، فبمساعدة البرمجيات CAD والحاسب الآلي في التصميم، التي تسمح بتصميم أشكال جديدة وغير عاديّة، كما ستخفف التقنية بعض الكلفة، وتساهم في سرعة الإنجاز، كما تساعد على إذكاء الأفكار الإبداعيّة لدى المهندسين، وربما كان أحد تلاميذه زها حديد أو فرانك جيري قادراً في المستقبل القريب على أن يبني لنا مجمعات سكنيّة تختلف عن البيوت المكعبة بتقليديّة فجّة، لها من هوية الفرد الشيء الكثير، معبرة عن سيكولوجيته وأحلامه واحتياجاته الدفينة.. ومحققة دوراً وظيفياً جديداً يختلف عن مجرد السكن فقط.. ربما، كان دوراً تهذيبياً، محرضاً للأفكار التي تنساب بانسيابيّة، فهل نشجع هذا البناء الجديد ونقف مع الأفكار الجريئة؟ أم نبحث كما يبحث أعداء النجاح والتجديد عن عثرات في النيات؟

فمن هنا نعتبر دخول الحداثة على العمارة بعد مرور حقبة من الزمن والتطورات التاريخيّة التي طرأت على العمارة منذ نشأتها وترجها الزمني وبمرورها بمراحل زمنيّة، شهدنا فيها الخصائص الفنيّة لكل حقبة زمنيّة لها، وتأثرها بعوامل مختلفة على كافة الصعد السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

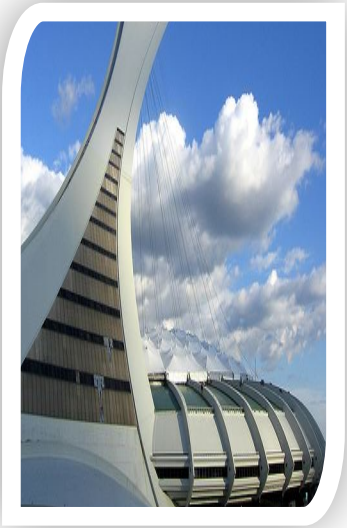

فلا بد من تسليط الضوء على الحداثة من حيث التعريف والتسمية، فالعمارة الحديثة تُسمى (بالإنجليزيّة: Modern Architecture) وهي فترة معماريّة ذات اتجاه يضم مجموعة من المدارس والأساليب المعماريّة التي لها خصائص متشابهة، والتي تشترك في المقام الأول بتبسيط الأشكال ونبذ الزخرفة، واشتهر بها كثير من معماري القرن العشرين المعروفين، ولكن كان عدد المباني الحديثة قليل جدا في الفترات الأولى من هذا القرن، فأصبحت مبانيها مهيمنة على الطراز المعماري لمباني المؤسّسات والشركات لثلاثة عقود.

فلاتجاه العمارة الحديثة، عدة مدارس هي: مدرسة عمارة الحداثة Modernism (حوالي ١٨٩٠–١٩٤٥) ومدرسة الحداثة المتأخرة Late Modernism (بين ١٩٤٥–١٩٨٠) ومدرسة ما بعد الحداثة Post Modernism (بدأت منذ ١٩٨٠) ومدرسة الحداثة الجديدة New Modernism، يشار بالذكر إلى أنه لا تزال خصائص وأصول العمارة الحديثة عرضة للتأويل والنقاش.

ولتاريخ الحداثة تسلسل زمني وتأثير كبير مع التطور الصناعي والثورة الصناعيّة، حيث تأثرت العمارة الحديثة بالثورة الصناعية التي أدت إلى أن اتخاذ المدن منها طابعها، ممّا أدى إلى ثورة الرجوع للطبيعة ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة، ومرت العمارة الحديثة بعصر قوتها في العشرينات وهو العصر الذي صاحب ازدهارها، ثم زاد انتشارها في الخمسينات، ومع نهاية الستينات، فقدت هذه الحركة كثيراً من قوتها الإيديولوجيّة بوفاة لو كوربوزييه عام ١٩٦٥م، كما فقدت في نفس الوقت الكثير من قيمتها الروحيّة والعاطفيّة كمحاولة للتأثير على المجتمع، وإن كان بعض من مدرسة الحداثة Modernism قدْ أحيوا وأنعشوا بعض مبادئها مثل الاتجاهات المستقبليّة Futurism بواسطة مجموعة الأرشيجرام والاتجاه الإنشائي Neo Constructivism في إيطاليا، ولكن عموماً قد أصبح فكر العمارة الحديثة خاوياً، ونستطيع بكثير من الثقة أن نقول أن عمارة الحداثة بمبادئها قد ماتت ولم يعد لها وجود سوى في بعض المدارس الأكاديميّة، تحت ما يُسمى بعمارة ميز المتأخرة، أو عمارة لويس كان، وهذه الاتجاهات تجمع معاً فيما يسمى بالمرحلة الأخيرة لعمارة الحداثة المتأخرة Post Modernism وهذان الاتجاهان باسميهما يشيران إلى أننا تخطينا مرحلة الحداثة وأن هذه الاتجاهات البارعة ما خرجنا إلا من طياتها، حتى يمكن التمييز بين المعماريين من أصحاب اتجاهي الحداثة المتأخرة وما بعد الحداثة.

لقد انفصلت الحداثة المعمارية نهائياً عن لغة العمارة، هذه اللغة التاريخيّة التي عبرت عن الإنسان الذي أنشأ العمارة من أجله، وبقيت عمارة الحداثة بدون لغة وبدون هوية" لأن اللغة هي المعبر عن الهوية " كما يقول هيدغر الفيلسوف الألماني، وليس بإمكاننا اعتماد عمارة لا هوية لها ولا تساعد الإنسان على العيش في بيئته التاريخيّة والاجتماعيّة، لقد كانت العمارة تعبر عن مفهوم قومي، ثم أصبحت اعتباطيّة فاقدة الشخصيّة، فالعمارة كما يقول هيدغر: هي" بت الوجود" . ومع أن العمارة هي خلية عمرانيّة، فإنها أصبحت في عالم الحداثة بعيدة عن شروطها التي تحدثنا عنها "اللقاء والتوافق والسكينة" .

لقد تجاهلت عمارة الحداثة هوية التشخيص FIGURAL IDAN TITY إذ أصبحت الأشكال كما يقول مس فان دي رو، نتيجة عملية التصميم والابتكار، إنّ إهمال لغة الذاكرة التاريخيّة في الحداثة المعماريّة، دفع المعمار إلى التعويض عن التاريخ بالحوافز الصناعيّة، فأصبحت الحداثة مجرد هواية ومغامرة اعتباطيّة.

واعتقدت الحداثة أنها انتصرت عندما تبنت الرأي القائل" بأن جميع المشاكل المعمارية قابلة للحل عن طريق الحداثة "، وإنه ليس من قلق إذا ما نحن تخلينا عن التاريخ الجمالي للعمارة. ولا يرى روجرز نفسه هذا القول صحيحاً بل يعتقد " إن شعارات الحداثة أصبحت دوغماتيّة، وما هي إلا تبرير للتدهور الاقتصادي الذي تحاول الحداثة إنقاذه "، ويضيف " كانت الحداثة تحوي عوامل ضعفٍ قاتلة، كما كانت تحتوي على إمكانيّات عالية "، ويتفق عدد كبير من المعماريين على مهاجمة الحداثة لنزعتها النخبوية واتجاهها في تدمير المدينة على الرغم أنهم من ممثلي الحداثة.

وللحداثة فترة اتجاهات ومدارس مختلفة، ومن هذه المدارس:

- عمارة الحداثة وهي بين(١٨٩٠–١٩٤٥) م Modernism وعلى سبيل الذكر منها المدرسة المستقبليّة، والمدرسة التعبيريّة، والمدرسة التكعيبيّة.
- مدرسة عمارة الحداثة المتأخرة (١٩٤٥–١٩٨٠) Late Modernism وتسمى هاي تيك.
- مدرسة عمارة ما بعد الحداثة (منذ ١٩٨٠) Post Modernism وتسمى التفتيكيّة.
- مدرسة عمارة الحداثة الجديدة New Modernism.

وأقتبس من مقال للأستاذ مشاري عبد الله النعيم في جريدة الرياض عن العمارة والحداثة ودورها في الاقتصاد، قال: قبل عدة أسابيع زرت بينالي العمارة في البندقية والذي سينتهي خلال هذا الشهر، ولفت انتباهي أمر مهم هو التركيز على "العمارة والاقتصاد" فالرسالة التي يرغب "البينالي" تقديمها هي أن البناء لا يعني الهدر والتبذير

والتطاول في العمران بل مقاصده الخيرة أكثر أهميّة وهي إيجاد بيئة مستقرة للإنسان بأقل الموارد الممكنة خصوصاً في ظل تزايد أعداد السكان وتناقص الموارد الطبيعيّة التي تنذر بأزمات إنسانيّة قادمة ما لم نقم بالتعامل معها بفكر اقتصادي عمراني يتناسب مع الظروف الحاليّة، هذا التوجه ذكرني بالرسالة السامية التي آلوها على أنفسهم أساطين العمارة في مطلع القرن العشرين عندما نصبوا أنفسهم مصلحين للمجتمع والاقتصاد في ذلك الوقت، والذي يبدو لي أن هذا الحلم مازال يراود الكثيرين من معماري اليوم نتيجة لاهتزاز الاستقرار الإنساني على مستوى العالم وهو الأمر الذي بشر بتطور أفكار معماريّة أكثر عقلانيّة وارتباطاً بحاجة الناس الفعليّة.

تذكرنا التجارب المعروضة في البينالي أن «العمارة العادلة»، ولعل هذا المصلح من عندي، طريقها طويل وغير مجدية اقتصادياً بالنسبة للمعماري لكنها مجدية بالنسبة للمدينة والمجتمع.

وقال أيضا: العمارة والاقتصاد بالطبع لا يقتصران على مسألة "التدوير" لكن البينالي حاول وضع مقارنات مهمة حول دور الفرد الإبداعي في إصلاح المجتمع الذي يعتبر أهم مورد اقتصادي متجدد يمكن أن تنهض من خلاله المدن والمجتمعات، خصوصاً المعماري والفنان ففي أحد الأركان هناك رسالة واضحة للتجربة المعمارية المهمة التي قدمها المعماري السويسري الفرنسي "ليكوربوزيية" (توفى عام ١٩٦٥م) في مدينة "شانديجار" الهندية فقد ساهمت هذه التجربة في بناء مفاهيم عمارة القرن العشرين وشكلت توجهاً فكرياً ارتبط باسم المعماري "كربوزيان ستيل"، لكن البينالي يقارن عمل "ليكوربوزييه" بعمل معماري هندي محلي اسمه "نك شاند" في حديقة الصخور في نفس المدينة وهي حديقة تحتوي على مجموعة الأعمال الفنيّة والمنحوتات التي صنعها المعماري الفنان من بقايا المواد التي تم توظيفها لتشكل متحفاً فنياً خلاقاً، ويقول صراحة إن التجربة المحلية أكثر تأثيراً على المجتمع من تجربة "ليكوربوزييه". أنا شخصياً مؤمن بالقول الذي يرى أن "المشاكل المحلية بحاجة إلى حلول محلية" وكذلك بالشعار الذي يقول "فكر كونياً وأعمل محلياً" الذي يعطي مساحة كبيرة للمجتمع المحلي لوضع الحلول المناسبة لمشاكله.

إن التجارب الصغيرة التي يقوم بها الناس والمبادرات التي يصنعها الفنانون والمعماريون هي التي تحدث التغيير الحقيقي على مستوى "إصلاح المدينة" والبيئة العمرانيّة، ويظهر أن "البينالي" يوجه رسالة نقديّة صارخة لعمارة النجوم Starchitecture التي جعلت من العمارة مهنة تجارية هدفها الكسب المادي قبل تقديم عمل فني واجتماعي يحدث تأثيرات عميقة في ثقافة المجتمعات. طغيان التجارة على الفن في العمارة في العقود الأخيرة

زاد من كلفة البناء وجعل كثير من المعماريين يتخلون عن مبادئهم وقيمهم التي نشؤوا عليها من أجل تحقيق مكاسب مادية عاجلة، والواضح أن هذه الظاهرة هي جزء من إيقاع العصر حيث تتكرر الظاهرة في كل المجالات الإبداعية التي تحولت إلى سلع وأشياء فتشيأت الفنون والمهارات وتشيأت المدن وتحولت إلى سوق كبير وبدأت تسلب الإنسان روحه وتحوله إلى "روبوت".

ويقول أن هذا التحول الكبير في المفاهيم من العمارة الإنسانيّة إلى عمارة الربح والخسارة جعلت من المدن أشبه بالبورصة فتراجع مفهوم العدالة الاجتماعيّة في مقابل تراكم الثروات والأثرة الاجتماعيّة نتيجة لرسملة المدينة وتحولها إلى سلعة تباع وتشترى.

واختم بالقول العمارة العادلة من وجهة نظري مثل المدينة الفاضلة هي مجرد سراب نلاحقه ولا نستطيع الوصول إليه لأن كل إنسان لديه أثرة مدهشة لنفسه لا يمكن أن تنافسها رغبته في خدمة الناس والمجتمع.